مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م - الجزء الثالث - المجلد الثالث والخمسون

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

اللغويون ونقد الشعر

أ.د. فائز طه عمر
كلية الآداب / جامعة بغداد

الملخص :

يسعى هذا البحث لبيان اثر اللغويين العرب الأوائل في نقد الشعر وتطوره ، محاولا تعليل علاقة اللغويين بالشعر ، ولاسيما الشعر الجاهلي ، التي تحولت الى موقف نقدي قائم على قضية الصراع بين القديم والحديث الشعري ، كانت ذات اثر في تطور نقد الشعر عند العرب .

وقد تجلى اثر اللغويين في نقد الشعر في الموازنات بين الشعراء ، وقضية البيئة المكانية والزمانية والفكرية ، والسرقات ، وكشفهم عن البديع وبعض فنونه . وغيرها .

كان من نتائج استقرار العرب المسلمين في الأمصار ، ان اختلطوا بغير العرب من الداخلين في الإسلام ، مما أدى إلى شيوع اللحن او الخطأ ، في اللغة العربية[1] والى الحاجة الى تعلم الأصول الصائبة للكلام العربي من اجل قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة ، اذ تسلل اليه اللحن في قراءة غير العرب بعض آياته مما يغير الأحكام ويجعل الناس مختلفين في فهم ما يقرؤونه منه ، فضلاً عن حاجة غير العرب من المسلمين الى معرفة وسائل قراءة النص القرآني العربي فكان ان هيأ الله تعالى فئة من الناس عنوا بهذه المسالة بحماسة وقوة وصدق ، على سبيل وضع نحو العربية وأصول الكلام الصحيح فيها ، ولضبط البناء اللغوي والتراكيب على نحو يؤدي الى صواب التعبير عن المعنى ، والى صواب القراءة والفهم ، وكان دليلهم في ذلك ، الشعر العربي ولاسيما الجاهلي منه ، وكان من عوامل دفعهم الى التوجه الى الشعر الجاهلي ما اثر عن الخليفة عمر بن الخطاب من حضٍّ على العناية بالشعر من اجل تفسير كتاب الله تعالى ، فهو : ((عليكم بديوانكم ان تضلوا ، فقالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كتابكم))[2] وربما كان قول عبد الله بن عباس اكثر وضوحا وحثا على التوجه الى الشعر العربي الذي يساعد الناس على تفسير كلام الله تعالى ومعرفة غريبه ، وهو : ((الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه))[3] فضلا عن انه أجرى هذا (المنهج في شرحه لكثير من الكلمات والعبارات القرآنية ، رأى بعض الناس انها غامضة عليهم ، وان دلالتها تحتاج الى شرح وتفسير . ولعل من اشهر ما نسب الى ابن عباس من

ذلك مسائل نافع بن الأزرق ..)[٤] (وقد أثار ابن عباس (وغيره) في عمله هذا حركة قوية تهدف الى جمع الشعر الجاهلي ، وتحصيله من صدور حفظته ورواته لتفسير او لإيضاح ما في القرآن من غريب ، وتفسير ما غمض من مفرداته وتراكيبه . ولم يمض وقت طويل حتى نشأ علم النحو ، للوقوف بوجه اللحن الذي شاع وفشا حتى شمل أولاد الخلفاء ، ... فتعززت الحاجة الى الشعر الجاهلي ، لانه اصبح الأساس الذي بنيت عليه قواعد هذا العلم ، والنبع الذي استمدت منه قوانينه وأصوله . فليس غريباً بعد ذلك ان تظهر طبقة تعنى بالشعر القديم ، وتجد في روايته وتتحمل المشاق في سبيل جمعه وتدوينه ثم تتسابق الى دراسته وتحليله . وكانت هذه الطبقة هي طبقة علماء اللغة ورواتها .)[٥] ولعل من أشهرهم ، عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (١٢٧ هـ) ، وعيسى ابن عمر الثقفي (١٤٩هـ) ، وابا عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) والخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥هـ) ، ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) وابا عبيدة معمر ابن المثنى (٢٠٩ هـ) والأصمعي ابا سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦هـ) وغيرهم ، وربما سنذكرهم ، وقد أفاد هؤلاء اللغويون نقد الشعر ، من نواح عدة من أبرزها ناحيتان ذكرهما المرحوم طه احمد إبراهيم : (الأولى انهم جمعوا كل ما قاله الأدباء قبلهم في الشعر والشعراء ، وكان لهم الفضل الأكبر في رواية الخصومات التي قامت حول كبار الشعراء وذكر الحجج التي يوردها أنصار كل شاعر في تفضيله ، والناحية الأخرى ان لهم أنفسهم ، آراءً قيمة في النقد واحكاماً على الشعراء)[٦] وهاتان مهمتان كبيرتان أفادتا النقد العربي القديم كثيراً ، فقد حفظ اللغويون معالم تطور هذا النقد بحفظهم التراث النقدي العربي السابق لهم ،

واسهموا في تطوره ، على نحو كبير ، بما أنتجوه من آراء نقدية فنية متنوعة هي ثمرة علاقتهم القوية بالشعر وروايته وحفظه ودراسته واستنباط الأحكام اللغوية منه ، فمن المتوقع ان تثمر علاقة اللغوي بالشعر وكثرة مدارسته له ، وقراءته ، وحفظه ، وروايته تذوقاً فنياً ، وقدرة على تمييز جودة الشعر ورداءته ، وغير ذلك مما يدخل في مجال النقد الفني الذي سنحاول ذكر نماذج منه تبين اثر اللغويين الكبير في تطور النقد العربي ، وصياغة ملامحه في المراحل اللاحقة لتطور هذا النقد ، فقد بدا أثرهم واسهامهم واضحا في قضايا عدة سنذكر بعضها على انهم اسهموا في تطور هذا النقد إسهاما آخر بنقلهم نقد الشعر من طور المشافهة الى طور التدوين والكتابة ، فقد كانت أولى المدونات النقدية العربية قد كتبها وصنفها لغويون .

لقد عني اللغويون والنحاة الأوائل بأغلاط الشعراء التي خرجت عن القياس الذي استنبطوه من الشعر فقد كان بعضهم يثبت الخطأ على الشاعر ، وبعضهم الآخر يجتهد في تأويله ، اذ يقول أحد النحاة : (كان ابو عمرو بن العلاء اشد تسليماً للعرب ، وكان ابن ابي اسحق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم . وكان عيسى يقول : أساء النابغة في قوله :

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقعُ

ويقول : موضعه ناقعاً)[٧] ، مع ان رفع (ناقعا) استعمال صائب[٨]. وقد اكثر اللغويون من تتبع أخطاء الشعراء ، مما لا علاقة له بالنقد الذي نتوخاه ، على ان ثمة مسالتين آثارهما اللغويون والتزموا بهما ، هما لغويتان (حرفيتان) أثرتا في نقد الشعر وتطور مناهجه لدى العرب ، آثرنا إيجازهما ، هنا ، وهما حرص اللغوي الراوية على اخذ الشعر وروايته من مظانه الجاهلية ، وعنايتهم ببيئة الشاعر

المكانية ، وما أدت اليه من اهتمام بالمؤثرات ، عامة ، في شعر الشاعر ، فقد حرص اللغويون على اخذ اللغة من أشعار قبائل عربية لم تختلط بالأعاجم ، ولا يحتمل ان تختلط بهم ، مما بينه السيوطي (٩١١هـ) بقوله : (والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي ، وعنهم اخذ اللسان العربي ، من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم واسد ، فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما أُخذ ومعظمه ، وعليهم أُتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فانه لم يؤخذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة ، وغسان ، واياد ، لمجاورتهم أهل الشام واكثرهم نصارى يقرؤن بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ... ، ولا من حاضرة الحجاز ، لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوهم غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .....)[٩] ففي هذا النص المهم ما يشير الى عناية اللغويين الرواة ببيئة العربي الذي يأخذون عنه اللغة ، وهو الشاعر الذي لم يخالط لسانه لسان الأعاجم ، ومن هنا فقد تحروا حياة الشعراء ومستقرهم ، وسفرهم الى الأمصار والحواضر ، خشية اختلاطهم بالأعاجم مما يُضعِف من فصاحتهم ، فقد اخذوا على عدي بن زيد وابي دؤاد الأيادي ان (ألفاظهما ليست بنجدية)[١٠] ، وبدا الأمر اكثر وضوحا في رأيهم بلغة الشاعر عدي بن زيد الذي كان مقيما لدى ملوك الحيرة ، يسمع لغات من يدخل عليهم ولهجاتهم ، إذ (كانت الوفود تفد على الملوك

بالحيرة ، وكان عدي بن زيد يسمع لغاتهم ، فيدخلها في شعره)[١١]، وربما ، من اجل هذا وغيره ، وصف أبو عمرو بن العلاء (عدي ابن زيد مثل سهيل في الكواكب ، يعارضها ولا يجري مجراها)[١٢]، ويبدو ان هذا حكم نقدي أساسه لغوي . ورأى الأصمعي في الشاعر ذي الرمة ضعفاً في فصاحته لتردده على الأسواق واكله في حوانيت البقالين ، مما يعرضه للاختلاط ، يقول : (ان ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح في حوانيت البقالين حتى بشم)[١٣]، ومما قيل عن الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات الذي وصفه الأصمعي بانه (ليس بحجة)[١٤]، ويبدو الأمر اكثر وضوحا في رأي ابي عمرو بن العلاء في الشاعر الطرماح بن الحكيم الذي قال عنه : (رايته بسواد الكوفة يكتب ألفاظ النبيط . فقلت : ما تصنع بهذه ؟ قال : أُعرّبها وأُدخلها في شعري)[١٥]، كذلك شان الشاعر الكميت بن زيد الاسدي الذي وصفه الأصمعي بعدم الحجية في الفصاحة لحضريته ، بقوله : (ليس الكميت بن زيد بحجة ، لان الكميت كان من أهل الكوفة ، فتعلم الغريب ، وروى الشعر ، وكان معلماً ، فلا يكون مثل أهل البدو)[١٦] . والأمثلة كثيرة ، وقد انتقل اهتمام اللغويين ببيئة الشاعر المكانية وتأثيراتها الى بيئته الفكرية ، والزمانية المتمثلتين بتغير العقيدة والفكر وما يؤدي اليه هذا التغيُّر في قوة الشعر ، مما تجلى في رأي الأصمعي الشهير في شعر حسان بن ثابت الذي راى فيه ضعفا بعد التزامه بمبادئ الإسلام في أغراض شعره ، مما أبعده عما الفه فحول الشعراء في أغراض شعرهم من وصف للديار ، وتشبيب بالنساء ، ووصف الخيل والحرب ، والفخر ، مما لا ينسجم مع ما التزم به حسان ، يقول الأصمعي : (طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لانَ ، ألا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في

الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير – من مراثي النبي (ρ) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم – لان شعره . وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس ، وزهير والنابغة ، من صفات الديار والرحل ، والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء ، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لانَ)[١٧]، ويبدو ان الأصمعي يرى ان قوة الشعر تحقق في تمتع الشاعر بحريته وعدم خضوعه لاي قيد ، والحرية تبدو هنا استجابة الشعر لرغبات نفس الشاعر وهواها مما حدَّ منه الإسلام وشذبه ، فحسان الذي اسلم اصبح ملتزماً بمبادئ الإسلام ونهجه ، وهذا رايٌ نقدي يعتد به ، وفيه إدراك لبواعث الشعر ، ولاثر الموقف الفكري الملتزم في قوة الشعر او ضعفه . وقد الزم اللغويون أنفسهم ان يأخذوا الشعر من زمن فصاحته وصفائه ، أي من العصر الجاهلي ، لذا حرصوا على رواية الشعر لشعراء جاهليين ، لكونهم بعيدين عن الزمن الذي شهد اختلاط اللسان العربي بألسن الأعاجم ولغاتهم ، ضمانا لقوة الشاهد الشعري وفصاحته وصلاحه لبناء قاعدة عليه ، لذا لا نستغرب قول الأصمعي عن ابي عمرو بن العلاء : (جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي)[١٨] ، وهو لا يخفي إعجابه بشعر جرير والفرزدق ومع هذا لم يروه ، لانه شعر محدث[١٩] ، فضلا عن إعجابه بشعر الاخطل على انه لم يقدمه على غيره لانه ليس جاهليا : (لو أدرك الاخطل يوما واحدا في الجاهلية ما قدمت عليه احداً)[٢٠]، ويؤكد ابن رشيق الأمر ويفسره بحاجة اللغويين الى الشاهد النحوي الصائب على ان الأمر تطور فصار لحاجة ، أي انه صار موقفاً عاماً

ينتصر فيه اللغوي للشعر القديم ، وان كان جيداً ، يقول ابن رشيق : (هذا مذهب ابي عمرو واصحابه ـ كالأصمعي ، وابن الأعرابي ـ اعني ان كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك الشيء الا حاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة)[٢٢] وقد احدث هذا الموقف حركة نقدية فحواها الصراع بين قديم الشعر وجديدة ، ومناصريهما .

ان الشواهد كثيرة على تعصب اللغويين للقدماء من الشعراء ، ونكتفي ، مع ما ذكرناه لابي عمرو بن العلاء ، بملاحظات قليلة أخرى : فقد تحدث الأصمعي عن شاعر محدث هو إبراهيم بن هرمة (١٥٠ هـ) فلم يعده فحلا لحداثته ، بقوله (ما يؤخره عن الفحول الا قرب عهده)[٢٣]، فالفحولة مرتبة شعرية متقدمة قواما الكثرة والجودة الشعرية ، فضلا عن القدم ، اذ ارتبطت الفحولة بالقدم لدى اللغويين . وقال اللغوي ابن الأعرابي (٢٣٠هـ) ، عن أشعار المحدثين ، ما يظهر تعصبه عليهم وتفضيله القدماء ، في سياق موازنة نقدية ذات طابع بياني : (انما أشعار هؤلاء المحدثين ـ مثل أبي نؤاس وغيره ـ مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً)[٢٤]، ويبدو ابن الأعرابي الأكثر تعصباً على الشعر المحدث مع وجود شعراء كبار يمثلونه ، مثل ابي تمام الذي استخف ابن الأعرابي بكلامه فلم يعده شعراً ، لكونه لا يوافق طريقة العرب وسننهم في نظمه ، بقوله عن شعر أبي تمام : (ان كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل)[٢٥] ان هذه المواقف ، وغيرها كثير ، قد أثارت النقد العربي وحركت فيه ما يدفعه الى إنتاج الآراء وقولها . ان ما يهمنا ، هنا ، هو عرض بعض آراء اللغويين ومواقفهم النقدية

الفنية التي هي ايضاً ذات اثر في تقدم النقد العربي ، واعطائه ابعاداً علمية معرفية صائبة ووضعه في سياقه المبني على قراءة النص الشعري وتدبره ودراسته . ولعل الموازنة بين الشعراء من المظاهر المهمة لنقد الشعر لدى هؤلاء اللغويين الذين كانوا يتوخون منها تحديد الشعراء الأفضل جودة في الشعر ، فهذا أبو عمرو بن العلاء قد قدم امرئ القيس والنابغة وطرفه مهلهل [٢٦] ، على سائر شعراء الجاهلية ، على ان ابا عبيدة عد الشعراء السبعة أصحاب (القصائد) السمط أفضلهم ، وهم امرؤ القيس ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعبيد الأبرص ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة[٢٧]، كذلك قدم اللغويون جريراً والفرزدق والاخطل على سائر الشعراء الإسلاميين . على انهم ربما اختلفوا في تقديم بعض الشعراء على بعض ، فقد روي (عن يونس بن حبيب النحوي ان علماء البصرة كانوا يقدمون امرؤ القيس ، وان اهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى)[٢٨] . وقد تحروا الجودة لدى الشعراء المقلين ، فوجد ابو عبيدة بعد موازنة حققها ، ان اشعر المقلين ، من الشعراء الجاهليين هم المسيب بن علس والمتلمس والحصين بن الحمام المري[٢٩] وقد انطلق اللغويون ، في الموازنات عامة ، من معايير كانت هي الفاعلة في تقديم شاعر على آخر ، وهي كثرة الشعر وجودته[٣٠] فضلاً عن تعدد أغراضه الشعرية ، فالجودة ، في تصوير المعاني مؤثرة ، على أهميتها ينبغي ان تتعزز ، وتثبت ، بكثرة النصوص الشعرية مما حققه الشعراء المقدمون المذكورون في أشعارهم الجيدة الغزيرة .

وكان من عوامل تقديم شاعر على غيره ، كثرة أغراضه ، وغزارة معانيه ، ولذا قدم الخليل الأعشى لانه (شاعر مجيد كثير

الاعاريض والافتتان)[٣١] ، مما اقره ابو عبيدة ايضاً وكانت قدرة الشعراء على الخوض في بعض الأغراض الشعرية ، ولاسيما المديح والهجاء ، وإجادتهم فيها ، عاملا مهما في تقديم بعض الشعراء على بعض[٣٢].

وعد الابتكار عاملا مهما في تقديم الكثير من الشعراء على غيرهم[٣٣] فالأصمعي قدم امرؤ القيس لسبقه في طرق المعاني والأساليب الجديدة التي ابتكرها وإجادته فيها اذ يقول : (اولهم كلهم ، في الجودة ، امرؤ القيس ، له الحظوة والسبق ، وكلهم اخذوا من قوله واتبعوا مذاهبه)[٣٣] ، واللغويون عامة (لم يتركوا شاعرا من مشهوري الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، وقالوا فيه شيئا .)[٣٤] ووازنوا بين شعره وشعر غيره ، فهذا أبو عمرو بن العلاء وازن بين اوس بن حجر ومعاصريه من جهة، وبين اوس ، والنابغة وزهير من جهة ثانية، فانتهى الى القول : (كان اوس بن حجر فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه)[٣٥]، على ان لأبي عمرو موازنة لا تخلو من رأي ذوقي انطباعي إذ قدم النابغة على زهير تقديماً مفرطا ، فقد سأله أحدهم : (.. النابغة أشعر أم زهير ؟ فقال : ما يصلح زهير ان يكون أجيراً للنابغة)[٣٦] ويرى الأصمعي في موازنة جزئية ان طفيل الغنوي ، في بعض شعره ، أشعر من امرؤ القيس)[٣٧] وهذه الموازنة تظهر معرفة الأصمعي بشعر الشعراء على نحو تفصيلي . وعني اللغويون بمشكلة السرقات بعد ان انتبهوا على ان بعض الشعراء يأخذ من بعض ، تأثراً ، او عمدا ، ووجدوا بعضهم ينتحل شعر بعض ، في أثناء توخيهم صواب نسبة الشعر لقائله ، فقد قال الأصمعي انه يقال : (ان كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه)[٣٨] . على ان

(اقدم من تعرض للسرق من بين نقادنا فيمكن القول ابو عمرو بن العلاء)[٣٩] .

ويعزى الكثير من مصطلحات السرقة الى اللغويين ، في أصولها الأولى ، من ذلك مصطلح (التوارد)[٤٠] ومعناه ان يرد على شاعرين معنى واحد فيعبران عنه باللفظ نفسه ، من دون ان يرى أحدهم الآخر ، مما استنبط من قول أبي عمرو بن العلاء ، ، بعد ان سأله الأصمعي عن شعراء (سرق بعضهم بعضا) وأورد له أمثلة على ذلك ، من شعر امرئ القيس وطرفة ، فقال ابو عمرو للأصمعي : (لا ! تلك عقول رجال توافت)[٤١] . ومع ان استعمال اللغويين بعض مصطلحات السرق (كان بسيطا بعيدا كل البعد عن هذه التعقيدات التي جد المتأخرون في جلبها)[٤٢] فانه كان ذا أهمية فائقة في ابتكار هذه المصطلحات والتأسيس لتعميق دلالتها . وسنشير الى بعض هذه المصطلحات التي اسهم اللغويون في ابتكارها ، على سبيل التمثيل ، ومنها مصطلح (الاجتلاب) الذي استعمله الأصمعي ، تعليقا على قول الفرزدق :

تمززتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

بانه اجتلبه واستلحقه من قول النابغة الذي هو نص قول الفرزدق ، بقوله (واجتلب البيت الأخير ... ولا أراه الا اجتلابا واستلحاقا)[٤٣] ويبدو ان لما فعله الفرزدق بأخذه بيت النابغة كاملا مما رأيناه ، اكثر من مصطلح لدى اللغويين فهو : اجتلاب ، واستلحاق ، وهو اغارة[٤٤] ايضاً . ومنها مصطلح : (الغصب) الذي استعمله الأصمعي وابن الأعرابي في إجماعهما على ان قول ابن الدمينة :

ولما لحقنا بالحمول ودونها خميص الحشا توهي القميص عواتقه

انما هو لابن الطثرية ، ولكن (غصبه عليه ابن الدمينة)[٤٥] ومنها مصطلح (الانتحال) الذي استعمله يونس بن حبيب في تعليقه على البيت الاتي :

تلك المكارم لاقِعبانِ من لبن شِيبا بماء فعادا بعدَ أبوالا

بانه (استلحاق وليس بانتحال)[٤٦] ، وقد ذكره أيضا ابو عبيدة[٤٧]، وربما قصدوا بالاستلحاق الاخذ المبني على الإعجاب والتأثر ، وليس الادعاء ، على ان الانتحال هو ادعاء الشاعر البيت لنفسه ، وقد استعمل اللغويون مصطلحات أخرى في السرق .

ومن إسهامات اللغويين المهمة والكبيرة في نقد الشعر والكشف عن أسراره الجمالية ، إدراكهم البديع وفنونه والاصطلاح عليها في وقت مبكر ، مما يشير الى عمق قراءتهم الشعر العربي الذي توخوا منه لغة العرب والى اكتشافهم ما في لغة هذا الشعر من طاقة فنية تصويرية استعملها الشعراء للتعبير عن معانيهم على نحو مؤثر مما يؤكد زيادة اللغويين في معرفة البديع الذي نشأ العلم به في ظلهم[٤٨]، فمصطلح (البديع) يعزى في الأكثر لهم مما يتبين في تعليق الجاحظ على استعمال فني مجازي جاء في أبيات شعرية أوردها ، وهو (هم ساعد الدهر) إذ قال (.. ((هم ساعد الدهر)) انما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة بالبديع)[٤٩] ، والرواة هم اللغويين الأوائل الذين عنوا بجمع اللغة من خلال رواية الشعر وحفظه ودرسه الذي قادهم على نحو تلقائي وربما غير مقصود ، الى تذوق جمال والمرتكزات البلاغية والأسلوبية لهذا الجمال التي تتمثل في فنون البديع التي اكتشفوها واصطلحوا عليها اصطلاحات اعتمدت واصبحت هي المعمول عليها ، الى اليوم في الدراسات البلاغية ، ومنها مصطلح

(الاستعارة) الذي يعزى اقدم استعمال له لابي عمرو ابن العلاء الذي استعمله مجموعاً (استعارات) في تعليقه على قول الفرزدق :

وساق الثريا في ملاءته الفجر

مشيراً الى ان الفرزدق قد صير (للفجر ملاءة ، ولا ملاءة له ، وانما استعار هذه اللفظة ، وهو من عجيب الاستعارات)[٥٠] ، كما ان ابا عبيدة قد سماها (المستعار)[٥١] في تعليقه على بيت آخر للفرزدق ، فضلا عن ذكره لها في مواضع أخرى[٥٢]، من دون تعريف .

وقد تنبّه اللغويون على (الالتفات) ، وان لم يسموه ، مما جاء في قول ابي عبيدة : (والعرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشاهد فترجع الى الشاهد)[٥٣]، على ان الأصمعي كان اقرب الى استعمال هذا المصطلح بلفظه ، في تعليقه على بيت جرير :

اتنسى اذ تودعنا سليمى بفرع بشامة سقي البشام

بقوله : (ألا تراه مقبلا بشعره ، ثم التفت الى البشام فدعا له)[٥٤]. ولا نريد الإطالة فللغويين فضلٌ في ابتكار عدد آخر من مصطلحات البديع ، ومنها الجناس والطباق ، والتشبيه ، والكناية ، والتعريض[٥٥].

وعني اللغويون بما وقع فيه الشعراء من أخطاء في تقاليد الشعر وخصائصه العروضية ، من ذلك ما ذكره أبو عمرو بن العلاء من ان فحلين (من الشعراء كانا يقويان : النابغة وبشر بن ابي خازم ..)[٥٦]، والإقواء هو كسر روي بيت في قصيدة مضمومة الروي .

وعنوا ايضاً بالمعاني وما يقع الشعراء فيه من أخطاء في التعبير عنها ، فقد اخذ الأصمعي ، مثلاً ، على امرئ القيس قوله :

واركب في الروع خيفانة كسا وجهها شعر منتشرْ

بقوله (اذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً .)[٥٧] .

فامرئ القيس أراد الفخر بكرم فرسه ، على انه لم يوفق في إظهار هذا المعنى .

ووازن الاصمعي بين النابغة وزهير واوس من جهة ، وطفيل الغنوي من جهة أخرى ، وكان معياره فنياً يتعلق بالقدرة على وصف الخيل الذي تفوق به الغنوي على هؤلاء الثلاثة ، يقول (لم يكن النابغة وزهير واوس يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الغنوي في صفة الخيل غاية في النعت)[٥٨]، وعد أبو عبيدة ذا الرمة في النسيب مثل جرير ، مما يشير الى موازنة دائرة حول غرض صوّره هذان الشاعران حققها ابو عبيدة بقوله : كان ذو الرمة اذا اخذ في النسيب ونعت فهو مثل جرير ...)[٥٩] . ووازن ابو عمرو بن العلاء بين ابتداءات الشعراء قصائدهم ، في الجاهلية والإسلام . عادّا النابغة ، فعلقمة فامرؤ القيس ابرعهم ابتداءً[٦٠]. على انه قال ، في موضع آخر : (احسن ابتداءٍ في الجاهلية قول امرؤ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وقوله : (قفا نبك) الى آخر البيت ، لانه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الأحبة والمنازل ووصف الزمن . وفي الإسلام القطامي في قوله :

انا محيوك فاسلم ايها الطللُ وان بليت وان أعيا بك الطيلُ

ومن المحدثين ، بشار ، في قوله :

ابي طللٌ بالجزع ان يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما[٦١]

فلم يكتف ابو عمرو بذكر من يراه احسن ابتداءً ، بل علل مـا يراه ، من تقديمه امرأ القيس ، خاصة .

ان إسهام اللغويين في نقد الشعر ، وقـول الآراء الطريفـة ، والمؤثرة ، كان إسهاما واسعا وعميقاً ، يظهر قوة فعلهم في وضع النقد على الجادة الصائبة المعبدة بالذوق والعلم والمعرفة ، والتدبر والدرس ، على اننا أثرنا إيجاز بعض ما اسهموا به في ما ذكرناه .

الهوامش والمصادر :

١. النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري : نعمة رحيم العزاوي ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد . ١٩٧٨ م : ٥٥ . وانظر مصدره هامش (١) ص ٥٥ .
٢. العربية والغموض .د. حلمي خليل . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية . ط١ ١٩٨٨م : ٥٣ وانظر مصدره هامش (١١) .
٣. م.ن : ٥٤ ، وانظر مصادره هامش (١٦) .
٤. م.ن : ٥٤ ، وانظر مصدره هامش (١٨) .
٥. النقد اللغوي : ٨٦ .
٦. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري : طه احمد ابراهيم . دار الحكمة . بيروت د.ت : ٥٧ .
٧. الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر للمرزباني ابي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (٣٨٤هـ). تحقيق : علي محمد البجاوي . دار نهضة مصر . ١٩٥٦م : ٥٠ .
٨. النقد اللغوي : ١٠٨ ــ ١٠٩ .
٩. المزهر في علوم اللغة وانواعها . للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) . تحقيق : محمد احمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة . د. ت ١/ ٢١١ ــ ٢١٢ .
١٠. الموشح : ١٠٤ .
١١. م.ن : ١٠٣ .
١٢. م.ن : ١٠٢ ــ ١٠٣ .
١٣. م.ن ٢٨٣ .

١٤. م.ن : ٢٩٣ .

١٥.م.ن : ٣٢٦ .

١٦.م.ن : ٣٠٢ .

١٧.م.ن : ٨٥ .

١٨.العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده . تاليف ابي علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي (٤٥٦هـ) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجيل ــ بيروت . ط٤ ، ١٩٧٢م ، ٩٠/١ .

١٩.م.ن : ٩٠/١ ــ ٩٢ وانظر الشعر والشعراء . ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) . دار الفكر ، بيروت د.ت. ٧/١ .

٢٠.فحولة الشعراء . الأصمعي (٢١٦هـ) تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، وطه محمد الزيني . المطبعة المنيرية بالأزهر . القاهرة . ط١ ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣ م : ٢٤ .

٢١.الشعر والشعراء : ٧/١ .

٢٢.العمدة : ١/ ٩١ .

٢٣.النقد عند اللغويين في القرن الثاني : سنية احمد محمد . دار الرسالة للطباعة ، بغداد . ١٩٧٧م : ٧٣ .

٢٤.الموشح : ٣٨٤ .

٢٥.م.ن : ٤٦٥ .

٢٦.العمدة : ١/ ٩٧ .

٢٧.م.ن : ٩٦/١ .

٢٨.م.ن : ٩٨/١ .

٢٩.م.ن : ١ / ١٠٥ .

٣٠.تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٦٥ .

٣١.فحولة الشعراء : ٢١ ، النقد عند اللغويين ١٤٧ .

٣٢.النقد عند اللغويين ١٤٩ .

٣٣.فحولة الشعراء : ١٣ ، العمدة : ٩٤/١ .

٣٤.تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٦٣ .

٣٥.طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) تحقيق محمود شاكر . دار المعارف للطباعة والنشر . القاهرة . ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م : ٨١ ، النقد عند اللغويين . ١٦٦ .

٣٦.الموشح : ٥٩ .

٣٧.م.ن : ٣٧ .

٣٨.م.ن : ٣٧ .

٣٩.النقد عند اللغويين : ٣٦٤ .

٤٠.م.ن : ٣٢٢ .

٤١.حلية المحاضرة في صناعة الشعر لابي علي محمد بن الحسن المظفر الحاتمي . تحقيق الدكتور جعفر الكتاني . دار الرشيد للنشر . بغداد ١٩٧٩ . ٤٦/٢ .

٤٢.النقد عند اللغويين : ٣٦٢ .

٤٣.حلية المحاضرة : ٥٨/٢ النقد عند اللغويين : ٣٢٩.

٤٤.حلية المحاضرة : ٥٨/٢ . النقد عند اللغويين : ٣٢٩.

٤٥.النقد عند اللغويين : ٣٣٤ ـ ٣٣٥ وانظر المصدر هامش (١) ص ٣٣٥ .

٤٦.حلية المحاضرة ٦٠/٢ ، النقد عند اللغويين : ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

٤٧.النقد عند اللغويين ٣٣٧ .

٤٨.علم البديع والبلاغة عند العرب : أ.ج. كراتشكوفسكي . ترجمه وقدم له : محمد الحجيري . دار الكلمة للنشر . بيروت . ط٢ ، ١٩٨٣ م : ٢٣ ، ٥٩ .

٤٩.البيان والتبيين : ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) .
تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٥ :
١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ٤/٥٥ .

٥٠.حلية المحاضرة : ١/ ١٣٦ النقد عند اللغويين ٢٦٧ .

٥١.معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. احمد مطلوب . مطبعة المجمع العلمي العراقي. جـ ١ (١٤٠٣هـ /١٩٨٣م): ١٣٧ـ ١٣٨ .

٥٢.م. ن : ١/١٣٨ .

٥٣.م. ن : ١/ ٢٩٥ .

٥٤.حلية المحاضرة ١/١٥٧ ، العمدة : ٢/٦٤ ، معجم المصطلحات البلاغية ١/٢٩٥ .

٥٥.المصطلح البلاغي لدى ابن المعتز . (بحث) . د. فائز طه عمر . مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد . عدد ٦٥ . ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م : ١٢٠ ـ ١٢٢ .

٥٦.الموشح : ٨٤ وانظر م. ن : ٨٠ .

٥٧.م. ن : ٣٩ .

٥٨.م. ن : ٥٠ .

٥٩.م. ن : ٢٧٩ .

٦٠.حلية المحاضرة : ١/٥٠١ .

٦١.م. ن : ١/٢٠٥ ـ ٢٠٦ .